الفصل السادس

الموالى والشعر العربى

تمهيد :

تركت حركة الموالى فى الترجمة ونشر العقائد والسير أثرا بينا فى الشعر العربى جعل له طابعا خاصاً يميزه عن أصوله الأولى ، وأغراضه التى كان يقال فيها ، فإذا عرضنا صورة لأصول هذا الأدب أيام الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية وضح هذا الطابع الجديد .

كان الشعر ديوان العرب وسجل وقائع حياتهم من آثار ومفاخر ، وكانت الذاكرة خزانة هذا الشعر ، وهى معروضة للآفات التى يتعرض لها الكائن الحى فلا عجب إذا وصلتنا أشعار العرب مربوكة غير متناسقة ، البيت الثانى لا يتعلق بمعنى البيت الأول والبيت الثالث لا يرتبط بمعنى البيت الثانى ، وليس غريبا أيضا أن يكون تدوين هذا الشعر ناقصا وأن تتولاه يد الرواة حذفا وانتحالا كما فعل خلف الأحمر وصاحبه ، ومع ذلك فالجملة التى فى أيدينا كافية لإعطاء الصورة التى نريدها ، لأن المعلقات مهما قيل فى كثرة المنحول فيها فإن فيها كثيراً من الصحيح الأصلى ، وإن فى كثير من كتب الأدب ، مثل الكامل للمبرد والعقد والحماسة وأمالى القالى والجمهرة والمفضليات وغيرها من أمهات الكتب مقطوعات صغيرة تمثل وقائع حياة الجاهلية خير تمثيل ، وإنك إذا استقريت ما جاء فى المعلقات وفى هذه المقطوعات وجدت الشعر الجاهلى يدور على الاعتراف بالقبيلة والدم وإطاعة هذه القبيلة ضلت أو اهتدت .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ويرتكز على الفتوة التى مظهرها العفة والسخاء والشجاعة والصبر والحلم والكرم والعفو والصدق والوفاء والرحمة وعظم الهمة ورعاية العهد ، وبعد كل ذلك تسجيل الحوادث .

يقول مقرن بن عائذ :

إنى امرؤ أفنى الحياء وشيمتى كرم الطبيعة والتجنب للخنا
من معشر فهم قروم سادة وليوث غاب حين تضطرم الوغى
ويصول بالأبدان كل مسعر مثل الشهاب إذا توقد ملمضا(١)

ويقول شاعر قيس بن ثعلبة :

دعوت بنى قيس إلى فشمرت خناذيذ من سعد طوال السواعد
إذا ماقلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد(٢)

ويقول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من هو الفتى لكفاية المهم ، ودفع الشر ، ظننت أنهم يعنونى فأجيبهم ، لا أكسل ولا أتحير ، ولا أنزل التلاع مخافة الأضياف — فإذا استعانى القوم فى قرى الأضياف أو قتال الأعداء أعنتهم فيها .

ويوضح قيمة الحياة فى ثلاثة أمور :

الخمرة ، وإغاثة المحتاجين ، والتمتع بجمال المرأة .

وتراه يجد فى مقام الجد ، ويهزل فى مقام الهزل ، فإذا فتشت عنه فى محافل القوم وجدته حيث الاستشارة لمهام الأمور ، وهو فى حوانيت الخمارة عند الفراغ واستجمام النشاط .

---

(١) حماسة ج ٣ ص ٢٠ (٢) المصدر نفسه .

ويرى أن يكون الشاعر شجاعاً يدافع عن عشيرته بسيفه إذا هاجمها الأعداء ، وإذا شتم الناس عرضه حماه بشعره ، وأن بقاء العشيرة موكول بصلة القرابة ، وقطع هذه الصلة أشد من وقع السيوف .

وقيمة المرء فى الحياة عند طرفة بإقدامه وصدق عزيمته وذكائه ، ووضوح الأمر لديه على ألا يؤخر عمل يومه إلى غده بحيث يبقى متحيراً فيذهب أمره سدى .

وتجد فى لامية الشنفرى طبع الشباب على الرجولة ، وتعويدهم الإباء والصبر والجد ونبذ الكسل ، وترك البيت للمرأة ، والاخشيشان فى العيش ، فإن النعومة عنده ليست من طبيعة الرجال :

ولست بهياف يعشى سوامه ... مجدعة سقبانها وهى بهل
ولا جبأ أكهى مرب بعرسه ... يطالعها فى شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغـــزل ... يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى ... سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل

* * *

فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه ... على مثل قلب السمع والحزم أنعل
أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له ... علىّ من الطول امرؤ متطول

وتقرأ فى معلقة زهير نوعاً آخر من الشعر يعالج فيه معضلة الحرب ونتائجها ، ويمدح السلم ، ويعلم فتيان القبيلة أن معضلات الأمور تحل بالسياسة والسيف ، وعلى المرء أن يكون مستعداً لدفع الأخطار مدججاً بالسلاح كيلا يضيع حقه ، فإن الناس إذا رأوا رجلا لا يدافع عن كرامته يضرسونه بأنيابهم ويدوسونه بمناسمهم .

ويرى لبيد أن من صفات الرجل العظيم ، أن يكون ضيفه مكرماً وجاره سعيداً منعما يسعد بقربه ، كما يسعد المرء بأيام الربيع ، ويفتخر

بعشيرته ويجعلها فى الذروة من الشرف إذا تفاخرت العشائر . وإن منها الحكام الذين يرفعون المظالم ويظهرون الحق ، وهم معروفون بالكرم والوفاء والدفاع عن الشرف .

ويتحدث الحارث بن حلزة فى معلقته عن بطولة عشيرته ويذكر مواقفها بين القبائل الأخرى ، ويلقى على الناس نصائحه ويذكرهم أن الطيش من آفات الإنسان ويذكرهم أن السلم والوفاء بالعهود من خير ما يؤمن المعيشة فى الحياة .

وعنترة يذكر شجاعته ومقارعة الأبطال ، ويفخر بنفسه ويجعل منها مثالا للمحارب الذى ينزل إلى الميدان للفوز بالرجولة لا لاكتساب الغنيمة ، وأنه ملجأ قومه عند الشدائد .

ويعدد عمرو بن كلثوم فى معلقته أسماء الآباء ، ويجعل من أعمالهم قدوة للشباب ، ويمجد ما ورثته العشيرة عن هؤلاء الآباء ، ويصف وفاء العشيرة وإتمام بنيها العهد إلى غير ذلك . من الفخار الذى يقوى العزة والكرامة فى النفوس ويربيها على الإباء والشمم .

ومن شعراء الجاهلية مضرس بن ربعى الذى يخاطب قومه فى التآخى ، واجتماع الكلمة والصفح والوقوف أمام العدو[1] .

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا ... ونقيم سالفة العدو الأصيد
ومتى نخف يوماً فساد عشيرة ... نصلح وإن نر صالحاً لا نفسد
ونعين فاعلنا على ما نابه ... حتى نيسره لفعل السيد
وإذا نموا صعداً فليس علينا ... منا الخبال ولا نفوس الحسد
ونجيب داعية الصباح بثائب ... عجل الركوب لدعوة المستنجد
ونفل شوكتها ونفشأ حميها ... حتى تبوخ وحمينا لم يبرد
ونحل فى دار الحفاظ بيوتنا ... رتع الخمائل فى الدرين الأسود

---

(١) حماسة جـ ٢ ص ٤١

وذو الأصبع العدوانى يدعو ابنه أسيدا وهو على فراش الموت فيقول له :

يابنى إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفظ عنى[1] .

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك . ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالا ملكت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعت إلى إخائهم سبيلا
أهن اللئام ولا تكن لإخائهم جملا ذلولا
وابذل لضيفك ذات رحلك مكرما حتى يزولا
واعزم إذا حاولت أمراً يفرج الهم الدخيلا
واحلل على الأيفاع للعافين واجتنب المسيلا
وانزل إلى الهيجاء إذا أبطالها كرهوا النزولا

ومن هؤلاء الشعراء المربين ربيعة بن مقروم الضبى ، نجد فى شعره تربية الشباب على الفتوة والمروءة والرجولة ، وهو الذى يقول : « إننى رجل أهين اللئيم ، وأحبو الكريم ، إننى من قوم إذا وقعت فى الناس الجماعة بذلوا أموالهم ليحولوا دونها ، وإذا لبسوا دروعهم فى الحروب وجدتهم سادة قروما ، إننى كريم أنزل المرتفع من الأماكن كى يرانى السائرون فيأتونى أضيافا[2] .

---

(١) أغانى ج ٣ ص ٩٨ (٢) المفضليات ص ٤٠ — ٤٣

وشعراء الجاهلية إلى جانب هذه التربية القوية الفاضلة يصفون في شعرهم ما يقع عليه حسهم ويرتبط به وجدانهم ويصوغه خيالهم ، فيصفون مظاهر الطبيعة وصفا دقيقا ، يصفون الرعد والبرق والسماء والسحب بأنواعها المختلفة ، وصورها في السماء ويصفون سقوط المطر وشدته ، والسيل وما يجرفه ، وما يتركه المطر من الغدران ، وشروق الشمس بعد المطر ، ثم قوس قزح ، وصفا بديعا تصورها الفاظهم كما تصور ذلك ريشة الرسام ، كذلك يصفون السيف والرمح ، والقوس وآثارها ويشبهون لمعان السيف في الحرب كلمع ثغر الحبيب في السلم . ويصفون الديار والآثار والضعائن والجبال والوهاد والوديان ، وتعرج الرمال ، ومطاردة حمر الوحش في الصيد والغزلان ، والمها والسباع والطيور ، خاصة القطا ويصفون الناقة ويطنبون في وصفها ، لأنها تحمل أثقالهم ويتنقلون عليها من محل إلى آخر ويقاتلون أعداءهم ، ويصفون الفرس ويذكرون جمالها وكرها وفرها إلى غير ذلك من هذه الأوصاف ، ويبدعون في وصف الخمرة ، والمرأة تأخذ مركزا ممتازا في شعرهم ، وإذا ذكروا محاسنها ، ذكروها من الأدب من دون أن يضيعوا لذة وصف هذا الجمال .

ولعل قصيدة امرىء القيس تعطينا شاهدا على ما قلناه في وصف الطبيعة

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتل
على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء فوق كتيفة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه ... فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل
كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والغثاء فلكة مغزل

الشعر فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية

لم تنطو صفحة الأدب الجاهلى فجأة بظهور الإسلام ، بل بقى محافظا على طابعه فى الأسلوب وكثير من الأغراض ، واستمر شعراء البادية ينظمون على طراز ما كان أسلافهم عليه حتى أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعبارة أكمل حتى انقرض نظم الشعر واختفت معالمه الأصلية من بينهم .

وكل ما فعلت العقيدة فى المدن ، أنها هذبت ألفاظه ووجهته وجهة أخرى إذ نقلت هؤلاء الشعراء من أفق القبيلة الضيق إلى أفق الأمة الواسع وأصبح الشاعر يذود عن العقيدة التى حملتها الأمة بدلا من النعرة التى كانت القبيلة تعتز بها . وأصبح الشعر فى هذه الفترة يهدف إلى وصف الوقائع الحربية وإلى التكاثر والتفاخر أمام الوفود المناوئة ، وإلى الإشادة بهذا الدين الذى زلزل أصنام الجزيرة وفتح عيون أبنائها على ثغور العالم .

وكان من أبرز الداخلين فى هذا الدين من الشعراء حسان بن ثابت وكعب بن زهير وأخوه بجير ، وأبو خراش وأبو ذؤيب ، وعباس ابن مرداس . وحسان كان المجلى فى هذه الحلبة فهو شاعر الدعوة وهو الذى يكاثر ويعدد المآثر ويذكر شوكة الإسلام وعزته ، وحسبك أن ترى ذلك فى رده على وفد بن تميم الذين وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم يعددون مآثرهم ويفاخرونه ويكاثرونه ، ولما قال شاعر هذا الوفد :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا فينا الملوك وفينا السادة الرفع

قام حسان بن ثابت وقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع

وسجل حسان بن ثابت وغيره من الشعراء أكثر الوقائع الحربية ، وكان كثيراً ما يبدأ قصيده كما يبدؤه زهير بن أبى سلمى (١) .

ثم هدأت سورة الشعر بتكاثر نزول آيات القرآن ، وأولع الناس بدراسته وبسماع الحديث ، وصارت منزلة حفاظ القرآن والحديث أعلى من منزلة الشاعر . وشرع الناس يفضلون رواية الحديث على رواية الشعر وتلاوة السورة على تلاوة القصيدة واستمرت هذه الظاهرة فى المدن إلى خلافة عثمان . أما البادية فقد بقيت عامرة بشعرائها وبأساليبهم وأغراضهم السابقة

فلما جاءت دولة بنى أمية ، واستروح الناس فى ظلالها إلى النعيم والدعة ، واتصلت البادية بالمدينة واتسع سلطان الأمة بالفتوح والنصر ، وتدفقت خيرات الأمم إلى البلاد نبغ نوع من الشعر الرقيق الجميل سموه الغزل العذرى . مثله عدد من الشعراء فيهم عمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزة وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأضرابهم وكانت المرأة ينبوع شعر هؤلاء ، يصفون مجالسها ومحاسنها ، وأحاديثها ، وكانت تشاركهم فى الحديث ، وقرض الشعر ونقده واشتهر من بين النساء فى ذلك : سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وفاطمة بنت عبد الملك وغيرهن .

بهر هؤلاء الناس أسلوب القرآن ، فتأثروه فى شعرهم فرقت ألفاظه وعذبت عباراته ، وسلست قوافيه ، فتميز فى هذه الناحية عن الشعر الجاهلى ، فإذا قرأت الصمة بن عبد الله ، وجدته سهلا عذبا لا غرابة فيه

---

(١) السيرة ص ٩٣٤ ديوان حسان ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٢٩ .

ولا تعقيد ، أنه يتغزل بحبيبته ويبكى الأطلال والدمن مثلما يفعل أى شاعر جاهلى ، غير أن السلاسة هنا أبين والتعقيد هناك أظهر[١] ، واشتد هذا التأثر بأسلوب القرآن حتى أصبحت الآية تقبس لتقوم مقام بيت من الشعر — وحسبك أن ترى هذا فى شعر أبى صخر الهذلى عندما يذكر حبيبته فى قوله :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمره أمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... اليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت لا عرف لدى ولا نكر[٢]

وأمير شعراء هذه الحلبة والمجلى فيها هو عمر بن أبى ربيعة ، قال الشعر والإسلام فى الذروة من العزة والقوة ، وقد مر على عبد الله بن عباس فأنشده شعراً غزليا فقال له عبد الله . أنت شاعر يا ابن أخى فقل ما شئت . برع عمر فى هذا النوع من الغزل فأعجب به الشعراء والأدباء وتغنى به الفتيان والفتيات .

وكان الفرزدق يقول إذا سمع شعره : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار . ووقع هذا عليه ، ويقول جرير إن أنسب الناس المخزومى يعنى عمر ، ولما سئل حماد الراوية عن شعر هذا الشاعر قال : ذاك الفستق المقشر ، ويقول النصيب : إن عمراً أوصفنا لربات الجمال .

وشعر عمر عف نظيف لم يسلك فيه سبيلا رديئا ، كان يقول عن نفسه ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة ، إنما أنا امرؤ موكل بالجمال

---

(١) حماسة جـ ٢ ص ٦٠ .
(٢) حماسة جـ ٢ ص ٦٦ .

أتبعه[1] ، وكان يعجبه جمال النساء فيجالسهن ويتحدث إليهن ويحدثهن وكن يصغين إليه ويعجبهن شعره . حدثنا صاحب الأغانى : أن نسوة اجتمعن فذكرن عمر بن أبى ربيعة وشعره وظرفه ومجلسه ، وحديثه ، فتشوقن إليه . فقالت سكينة بنت الحسين أنا لكن به ، فبعثت إليه رسولا أن يوافى الصورين ليلة سمتها . فوافاهن حتى رواحله خدثهن حتى طلع الفجر . وحان انصرافهن فقال لهن : « والله انى لمحتاج إلى زيارة قبر النبى فى مسجده ولكن لا أخلط بزيارتكن غيرها . ثم انصرف إلى مكة .

ومن روائع غزله فى نعم قوله :

طال ليلى واعتادنى اليوم سقم ... وأصابت مقاتل القلب نعم
حرة الوجه والشمائل والجوهـــر تكليمها لمن نال غنم
وحديث بمثله تنزل العصم ... رخيم يشوب ذلك حـــلم
هكذا وصف ما بدا لى منها ... ليس لى بالذى تغيب علم
إن تجودى أو تبخلى فبحمد ... لست يا نعم ! فيهما من يذم

وفى وصف أخرى :

أبرزوها مثل المها تتهادى ... بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها ! قلت بهرا ... عدد القطر والحصا والتراب
وهى مكنونة تحير منهـــا ... فى أديم الخدين ماء الشراب

وكان يزاحم جميلا ويباريه فى شعره ، فإذا قال جميل شعرا جاء عمر بمثله ، فقد نظم عمر رائيته على غرار رائية جميل ، ولاميته على نحو ما نظم جميل[2] .

ولما مات عمر جزع عليه أهل مكة فقالت جارية : « من لمكة وشعابها وأباطحها ، ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها » ؟ فقيل لها

---

(١) أغانى ج ١ ص ٧٥ — ٧٧ . (٢) أغانى ج ١ ص ١١٥ — ١١٧

خفضى عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه فقالت : أنشدونى من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضحكت وقالت الحمد لله الذى لم يضيع حرمه[1] . وهكذا أصبح العرجى خليفة لابن أبى ربيعة واقتعد مكانته فى الغزل والوصف ، حادث النساء ووصفهن ووصف مجالسهن وصارت له معهن حادثات تشبه حادثات ابن أبى ربيعة . حدثنا مؤرخو الأدب أنه كان يهوى امرأة من بنى تميم ، وكان يتعرض لها فإذا رأته رمت بنفسها وتسترت منه ، وفى يوم من الأيام بصر بها فى نسوة يتحدثن فأحب أن يتأملها من قرب فعدل عنها ، وتنكر وجاء بوطب لبن إلى النسوة فقلن له أعندك لبن ؟ فقال نعم ، ثم أعطاهن فأخذ النسوة يشربن وحبيبته جالسة لم تعرفه وهو ينظر إليها وينظر إلى الأرض كمثل رجل أضاع شيئاً فسألته إحداهن ماذا أضعت أيها الفتى ؟ فقال قلبى ، فشعرت حبيبته بذلك وعلمت أنه العرجى فاختفت منه ، وقام النساء فسترنها عنه وقلن له انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك فقال فيها قصيدة :

لحينى والبلاء لقيت ظهرا ... بأعلى النقع أخت بنى تميم
فلما رأت عيناى منها ... أسيل الخد فى خلق عميم
وعينى جؤذر خرق وثغرا ... كلون الأقحوان وجيد ريم
حنا أترابها دونى عليها ... حنو العائدات على السقيم

ومن هؤلاء الشعراء ابن أذينه ، وهو شاعر فقيه ومحدث يصف حبيبته وصفاً عفا جميلا :

إن التى زعمت فؤادك ملها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها

---

(١) أغانى جـ ١ ص ٣٨٧

انتشر هذا النوع من الشعر وطما به كثير من الشعراء وشاركتهم النساء المعلومة بأسمائهن كتب الأدب .

ونشأ إلى جانب هذا الشعر الرقيق العف شعر سياسى يمدح به الشعراء من يميلون إليه من الأمويين والعلويين . وشعر هجائى مقذع قاس قسم الشعراء حزبين أحدهما ينصر جريرا والآخر الفرزدق وأخذ مكانته فى التعبير عن هذه الفترة فى السلوك والحياة وله مثل واضح فى نقائض جرير .

وموجز القول أن الشعر فى هذه الفترة من صدر الإسلام إلى انتهاء أيام بنى أمية كان طابعه فى الدفاع عن العقيدة والدعوة لها وتسجيل الوقائع الحربية والحث على الجهاد فى صدر الإسلام .

والغزل العفيف والمدح والانتصار للمتنازعين على الحكم والرياسة والهجو العنيف الذى بعثته خصومة جرير والفرزدق فى أيام بنى أمية .

اتجاه الشعر فى صدر الدولة العباسية

أثر المانوية والمزدكية فيه

مهدنا فى مستهل هذا الفصل بصورة بينة لأغراض الشعر وأساليبه أيام الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية ، لتكون هذه الصورة عوناً على معرفة ما تركته حركة الموالى من أثر فى توجيه الشعر فى صدر الدولة العباسية . وقد رأينا فى تلك الأطوار الثلاثة ، أن الانتقال من طور إلى طور وإن كان فيه شدة ، إلا أنها شدة لم يصحبها عنف ، فلم يكن هناك اختلاف ظاهر إلا فيما اقتضته طبيعة هذا الانتقال .

أما انهيار الحكم الأموى ، وقيام الحكم العباسى ، فقد كان الانتقال فيه عنيفا ، ولم يكن الصراع فيه بين أسرة وأسرة فى أمة واحدة بل كان بين أمة غالبة وأمة مغلوبة ، وكان صراعا طويلا خفياً يظهر وميضه خلال

الرماد فى الفينة بعد الفينة ، وكان حكام الأمويين فى الأقاليم يعرفونه وكانوا ينبهون عليه فلم يسمع لهم مركز الدولة صوتا .

والصراع إذا انتهى إلى غلب بعد طول مدة ، تنكشف بعد انتهائه الطبائع وتتغير النفوس وتتبدل آفاق التفكير ، فتتحول قواعد الاجتماع شأن كل رجة عنيفة من رجات المجتمع تحدثها ثورات تسبقها آراء وأفكار تمهد لها .

فلما تم الأمر لبنى العباس وتمكنت لهم دعائم الدولة وأسرع العمران إلى البلاد وأنشأوا بغداد عاصمة الخلافة شرع ينحدر إليها الشعراء والمغنون من البوادى والحواضر . وتدفقت موجة العناصر الجديدة الداخلة فى الإسلام وكان أبرزها العنصر الفارسى لمجاورته ولمعاضدته العباسيين فى انتقال الحكم إليهم من الأمويين فجلبوا فى حقائبهم كتب حضارتهم وفى أفئدتهم عقائد أسلافهم .

والعراق بلاد الرافدين ، خصب الجوانب ، نبتت فيه الجنان وورفت فيه المتنزهات ، وشقت الترع والأنهار وشيدت القصور وأقيمت الحمامات ونظمت الشوارع ، واتخذت السفن شرعا تنحدر وتعلو فى دجلة تحمل الخلفاء والأمراء ، تحف بهم حاشيتهم من الوزراء والندامى والمغنين والمضحكين . وأصبحت بغداد سوقا تباع فيه الجوارى الحسان ، ترد إليها من الشرق والغرب . والمرأة والطبيعة الخصبة منبعان للأدب ومادتان عظيمتان للشاعر تبعثان فيه روح الابتكار فإذا اتسع أفق الثقافة وزادت المعرفة من التجارب وتنوعت المحسوسات وتعددت الحوادث استطاعت مخيلة الشاعر أن تتصور وتتخيل وتنشىء وتبدع بخلاف مخيلة أخرى لم تقع حواسها على ما وقعت عليه حواس الثانية ، وهنا يفترق عصر عن عصر ، وأخلاق جيل عن أخلاق جيل آخر ، بل إن الشعراء فى عصر واحد يختلف أحدهم عن الآخر تبعاً لهذا القانون وتبعاً لاختلافهم

فى المعيشة والمرئيات التى تتعودها الحواس ، لذلك لم يكن عيباً جواب ابن الرومى حين قيل له « لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ؟ فقال : من أين لى ذلك ؟ إنه ابن خليفة يرى ما عنده فيصفه ، وأرى ما يقع تحت عينى فأصفه .

اتسعت دائرة الترجمة العلمية على اختلاف أهدافها . وانصرف الخلفاء إلى تشجيع الناس فى تدوين العلم ونقله عن كتب السريان واليونان والهند والفرس ، وساهم البرامكة مساهمتهم المعروفة ، فنقلت كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة والزهد والطب والسير والتواريخ والعقائد والأدب والقصص والشعر وما إلى ذلك مما امتلأت به خزانات الحكمة ، ومكتبات الأدباء والعلماء . فإذا رأينا فى دراسة الشعر الجاهلى مجموعة من الشعراء والأدباء يعلمون الناس الأدب وينشئون الفتيان على الرجولة بما يقصدون من القصائد ويقصون من القصص ، وما ينثرونه فى مجالس الحديث ، ورأينا فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية فريقاً يدافع عن عقيدة محمد ويصف الوقائع ويحرض على ارتداء الفضائل والتمدح بهذه الشريعة الغراء وفريقاً غزلا يفتح صدور الفتيان للحب العذرى ويفسح فى مجالس الأدب مكاناً للفتيات يتنادرن مع الفتيان فإننا نرى فى العصر العباسى شيئا آخر مباينا لكثير مما ذكرناه فى الأيام السالفة .

هنا فريقان من الشعراء . فريق ظل وفياً للبادية ، لازم قوة لهجته ، وفخامة أسلوبه وصراحة تفكيره ووضوحه واستمداد خياله مما تقع عليه حواسه من مرئيات باديته ، وفريق درج فى هذه الحضارة ثقف العربية ودرس القرآن والحديث وقرأ ما ترجم من علوم الأمم المتحضرة أو جاء بما كان عند أمته من ثقافة عامة ، ومن هذا الفريق جماعة مبرزة ممن دخلوا فى دين الإسلام ظلت تتردد بين جوانحهم عقائد أسلافهم من المزدكية والمانوية زخرت بهم أسواق الأدب ومجالس الأمراء

وقصور الخلفاء ، وانبثوا فى الحانات والأديرة والأندية يتفنون بشعرهم وينثرون آراءهم دون تحفظ أو خجل وكان من خصائصهم تأليف جماعات دعيت جماعات المجان وسموا الزنادقة ، وقد عرف من هؤلاء أنهم يستهزئون بالقرآن والصلاة والحج وينكرون البعث والحساب والملائكة والجن ويعتقدون بتناسخ الأرواح وإرجاع الأشياء إلى أصلين اثنين : النور والظلمة وهما مصدر كل مادة ، لذلك لا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس ومنهم من يميل إلى أكل النبات ويمتنع عن أكل اللحوم وما إلى ذلك من الأمور التى عرفت عن المانوية والمزدكية .

وقد كانوا يجهرون بالإباحة المطلقة ، وكانت آراؤهم هذه مثار جدل وتعب للخلفاء الذين يريدون توطيد أركان الدولة فى ظلال من الطمأنينة ، فلما اشتدت حركتهم وانتشر أدبهم وكثر أتباعهم والمتفنون بمأثورهم لم ير الخلفاء بدأ من عقابهم ، فوكلوا بهم صاحب الزنادقة لأن من كان يعرف بمثل هذه الآراء كان يسمى زنديقاً . وحكم على بعض المشهورين منهم بالقتل وعلى البعض الآخر بالحبس ، ومن مشاهير أدباء الزندقة عبد الله بن المقفع وحماد عجرد ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى ووالبة بن الحباب وأضرابهم من الكتاب ، وبشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس وأمثالهم من الشعراء .

وقد أثر الأدباء والكتاب تأثيرا بليغا فى نشر الآراء وإثارة الشك كما أثر الشعراء بمثل ذلك فى توجيه النظم والغناء وطبعه بطابع خاص ، ولعل هؤلاء الشعراء الثلاثة خير مثل يوضح ما ذهبنا إليه فى هذه الرسالة ، وقد اخترتهم لأنهم كانوا من كبار أصحاب النظم الذين يتأثر بهم غيرهم ويقلدونهم فى أساليبهم وآرائهم .

١ — بشار بن برد

يتبوأ بشار بن برد المكان الأول بين الشعراء في الزندقة وهو من عجم طخارستان[١] . وكان ولاؤه لبني عقيل ، نشأ بينهم وتعلم العربية ، وقال الشعر وهو صغير السن ، فلما كبر حسن شعره وانتشر بين الناس ، وكان يقول عن نفسه إن لي اثني عشر ألف بيت من جياد الشعر . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لي اثنتا عشرة ألف قصيدة ! أما في كل قصيدة منها بيت جيد ؟

بيد أن هذه الكثرة لم تصلنا من شعر بشار ، وما وصلنا منها فهو قليل متناثر في كتب الأدب والتاريخ ، قد جمع في ديوان صغير لا يتفق حجمه مع هذا العدد الكثير الذي أثبته بشار لنفسه .

وبشار شاعر ، وخطيب صاحب منثور وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه[٢] وهو من طراز الأعشى والنابغة بين الشعراء من حيث الأسلوب والجزالة . وقد انتشر شعره بين الناس فلم يبق غزل ولا غزلة إلا يروى شعره ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب بشعره ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه[٣] .

يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ[٤] وجودها وإبليس في رأيه خير من آدم لأن إبليس خلق من النار وآدم صور من الطين ولا يمكن للطين أن يسمو سمو النار .

---

(١) أغاني جـ ٣ ص ١٣٨ — ١٤٥

(٢) أغاني ١٤٥ — ١٤٩

(٣) الأغاني ص ١٤٩

(٤) أغاني ص ٢٢٧

ويهزأ بشار بالإسلام وبالأذان وينكر البعث والحساب ويفضل شعره على القرآن وقد سمع مغنية تغنى بشعره فأعجبه صوتها وغناؤها فقال هذا والله أحسن من سورة الحشر (١).

قال فايدا Vaida فى معرض كلامه عن الزنادقة لو صدقنا التعازى التهكمية التى وجهها بشار بعد موت حماد عجرد إلى صاحبه حريب لوجدنا أن الزندقة هى الاعتقاد بالاثنين وإباحة النساء.

وكان حماد عجرد يقول: إنما يغيظنى من بشار تجاهله بالزندقة وهو والله أعلم بالزندقة من مانى (٢).

وكان مجلس بشار مثابة الماجنين والخليعين يجتمعون عنده فيستمع إلى قصائدهم ويقول إن هذه القصيدة أو تلك خير من سورة كذا.

وقد حاوره أحمد بن خلاد فى ميله إلى الإلحاد فكان يقول لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله وختم مناقشته بهذه الأبيات التى لا تدل إلا على رأى ينكر الحرية ويعترف بالعجز أمام المغيبات ويضرب عن فهم تقلبات الحياة قال:

طبعت على ما فى غير مخير هـــواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وكان بشار إباحى النزعة، يقال إن له مجلسا يدعى البردان وكانت النساء يحضرنه فإذا تكلمت امرأة سمع صوتها فعشقها. وبعث إليها غلامه يكلمها، فإذا أبت ذلك بعث إليها بشعر فاحش (٣).

قال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار، ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى، وقال واصل بن عطاء إن من

---

(١) أغانى ص ٢١١

(٢) أغانى جـ ٣ ص ٦٢ راجع عن زندقته رسالة الغفران ص١٣٩، Rivista studi orientaly, XVII 173-229

(٣) أغانى جـ ٣ ص ٢٠٢.

أتخدع بمقائل الشيطان وأغراره لكلمات هذا الملحد الأعمى ، ويقول أبو عبيدة — أي حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة الخزلة والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ، ثم ذكر قصيدته الرائية [1]

وكان يحرض الفتيان على ملاحقة النساء ويقول لهم لا تيأسوا منهن

قاس الهموم تنل بها نجحا ... والليل ان وراءه صبحا
لا ييئسنك من مخبأة ... قول تغاظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما جمحا [2]

فلما سمع المهدي بذلك قال له تلك أمك ! تحض الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبآت والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً لآتين على روحك .

وأما من الناحية السياسية فقد كان بشار متعصبا لقومه يكره العرب ويشتمهم شتما مقذعا ويرى أن الموالي أفضل من العرب [3] ويرغبهم في الرجوع إلى أصولهم وتركهم الولاء ، حدثنا صاحب الأغاني أن رجلا شريفاً من بني زيد وقف على بشار فقال له : يا بشار لقد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم إلى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ولفرعي أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً لفعلت ولكن موعدك غداً بالمربد ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشارا يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فاذا رجل ينشد قصيدة كلها فحش وشتم ، فسأل عمن قال هذا ، فقيل له : هذا بشار فيك ، فرجع إلى منزله ولم يدخل المربد أبداً [4].

---

(١) أغاني ج ٣ ص ١٨٠ .
(٢) أغاني ج ٣ ص ٢٤٠ .
(٣) أغاني ص ١٦١ .
(٤) أغاني ص ٢٠٣ .

ولما قتل أبو مسلم الخراسانى اغتاظ بشار بن برد فأنشد قصيدة يتوعد فيها أبا جعفر المنصور .

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليـــل بسالم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقائم

وقد حفظ سياسيو الفرس لبشار هذه اليد فى ثورتهم الأدبية ، فلما انتصر المأمون على الأمين وجاء طاهر بن الحسين إلى بغداد أخذ يسأل عن أولاد بشار كى يساعدهم على شئون الحياة . أحدث بشار ثورة أدبية كبرى وانتشر أدبه فى البلاد لأن شعره جميل سهل الحفظ جزل الأسلوب تقبله الأسماع وتتأثر به الغرائز ، تجد فيه مظهرين واضحين الإباحة المطلقة والدعوة إلى النار والنور وهى مبادىء جاءت بها المزدكية والمانوية وهذه لا تلائم طبيعة العربى وعقيدته فإذا كان بشار بن برد يقدس النور فإن المتنبى يستخف به وبالمانوية ويقول :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب

وإذا كان بشار يدعو إلى الإباحة المطلقة فإن غيرة الخلفاء وتقاليد المجتمع وتعاليم الدين تخالف ما يدعو إليه .

كان بشار رجلا أعمى لا يجد فى نفسه حرجا فيما يقوله ولا يخاف أحداً وإذا أراد شيئاً بلغه بسهولة ، وإذا امتنع عليه أحد هجاه هجاء مقذعا . اجتمعت على بشار كل هذه العوامل السياسية والاجتماعية والدينية فكان مآله إلى ما يئول إليه كل زنديق متطرف فى ذلك الزمن ، فأمر الخليفة المهدى صاحب الزنادقة أن يقتل بشاراً فقتله . فلما مات لم يبق شريف بالبصرة إلا بعث لصاحب الزنادقة بالفرش والكسوة والهدايا .

مات بشار بالبصرة وقد بلغ نيفاً وسبعين عاماً من العمر[1] .

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤٩ ، بروكلمن جـ ١ ص ١١٠ ، كرمر مقتطفات من تاريخ الثقافة ص ٣٥ . ويقال أن بشار بن برد قتل إنتقاماً ليعقوب بن داود لأنه هجاه .

٢ — أبو نواس

عرف بين عامة الناس أن أبا نواس شاعر هزلى مضحك ، ونديم للخليفة فى البلاط يدفع عنه بمزاجه ونكاته وشعره هموم الحياة ومتاعب أعباء الحكم .

وعرف بين الناقدين من العلماء أنه شاعر من أكبر شعراء العربية فى العصر العباسى الأول . فالعامة يرددون ما سمع من نكاته وما وضع عليه منها يلهون بها فيظرف مجلسهم ويشيع فيه الضحك والمرح .

والنقاد من العلماء يضعونه فى بحوثهم فيجدونه وصافا للخمرة من الطراز الأول مبتدعا الغزل يخالف سنة الطبيعة ، وهو فى هذين النوعين من النظم مجلى فى حلبة أقرانه لا يتقدم عليه واحد منهم .

فهو إذن فى عرف هؤلاء جميعاً رجل شغل نفسه بوصف الخمرة والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم ويدخل السرور على أنفسهم .

ولكن لأبى نواس ناحية أخرى غير هذه الناحية ، وهدفا فى الحياة أبعد من هذا الهدف ، فهو راوية ناقد ذكى الفؤاد ، ثبت الفهم ، متكلم ، عالم بأخبار العرب وأيامهم وغريب اللغة . اتصل بخلف الأحمر يروى عنه ويسأله عن الشعر ومعانيه ، وبأبى عبيدة يسأله عن أخبار العرب وأيام الناس ، درس نحو سيبويه ، وأخذ عن أبى زيد غريب الألفاظ[1] ، وجالس الفقهاء واستمع إلى أصحاب الكلام وتعلم منهم واتصل بالشاعر الماجن والبة بن الحباب فتأثر به وأخذ عنه[2] .

واحتضنه الموالى وأشادوا بذكره ومدحوه أمام الرشيد حتى اتخذ المقام الأول بين الندامى فى بلاط الخليفة[3] ، وقابلهم مدحا بمدح

---

(١) أخبار أبو نواس ص ٢٣ — ٢٧ (٢) أغانى ج ١٦ ص ١٥٠

(٣) أخبار ص ٢١٦

وإشادة بإشادة ، فأبو عبيدة فى رأى ابن أبى نواس أديم طوى على علم وخلف الأحمر جمع علم الناس وفهمهم ، والأصمعى بلبل فى قفص[١] .

وتقدم أبو نواس فى هذه الحياة حتى صار قطبا من أقطاب جمعية البرامكة التى كانت تشتغل فى قلب نظام الحكم وتوجيه العلم والأدب . فكانوا له ظلا ، وكان لهم رداءً يدفع عنهم غضب الرشيد وينشر محاسنهم بين الناس ، ويكفونه مؤنة الحياة ، قال المستشرق كريمر ناشر ديوان أبى نواس — لقد كان أثر أبى نواس على الرشيد كبيرا ، فكان يكفى أن يقول البيتين يفثأ بهما غضبه عن البرامكة أو يقلله . وقد مدحهم بقصائد خلدت ذكراهم[٢] .

لقد كان ذكيا واسع الحيلة يعرف كيف يجد ، ويعرف كيف يهزل ، ولو لم تكن له هذه القدرة لكان نصيبه القتل مثلما كان نصيب صاحبيه ابن المقفع وبشار بن برد ، وبهذه القدرة استطاع أبو نواس كما يقول كريمر أن يستخف بالعقيدة وينشر الضلال والزندقة ويتكلم مايريد دون حياء أو خجل[٣] .

اتهم أبو نواس بالزندقة وعد بين كبار الشعوبية وشهد عليه كثير أمام الأمين فحبسه فى حبس الزنادقة ، وقال عن نفسه : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره حتى حبست فى حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم . وإذا له شعر مزاوج بيتين ، يقرءونه فى صلاتهم[٤] .

وما من شك فى أنه متأثر بالمانونة والمزدكية ، فهو لم يخرج عن سبيل غيره من عرفوا بهذا الميل فإنه يرى فى العقيدة الجديدة قيدا من

---

(١) أخبار ص ٢١٦

(٢) كريمر — ديوان أبى نواس ص ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ (٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع الأغانى ترجمة حماد عجرد .

قيود الحياة ويرى أن يتحرر المرء من هذه القيود ويتمتع باللذات ولا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس ، وينكر البعث وهو فى نظره خيال أمره مظلم وعلى المرء أن يغتنم هذه الفرصة ويستفيد من الموجود لأن الغائب لا علم له به ، ولم يأت أحد يخبره فى جنة من مات أو فى نار .

ومن مبادىء المانوية إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة جميع الأديان لتتغلب عليها أما الغزل بالمذكر فإنه ينحدر من أصولها ؛ قال البيرونى فى تاريخه (ص ٢٨) عند الكلام على المانوية : أن كل مانوى يصطحب غلاما أمرد ويستخدمه فى شئونه ، ولم يكن هذا الغزل مألوفا فى شعر العرب[١] وقال حمزة الأصبهانى ، جامع ديوان أبى نواس إن أبا نواس هو الذى ابتدع غزل المذكر وإذا لم يكن هو البادىء فإن هذا النوع لم يحدث إلا فى العصر العباسى لأننا لم نر ذلك فى شعر الجاهليين والإسلاميين إلا أيام بنى أمية ، وشعراء العرب لم يغنوا إلا بالمرأة ، فلما قدم جيش المسودة من خراسان لنصرة بنى العباس كان يصحبهم الغلمان يستخدمونهم فنشأ عن ذلك هذا النوع من الغزل وانتشر بين شعراء هذا العصر .

وزعم الجاحظ فى صحيفة بقيت من كتاب المعلمين ، أن هذه العادة بدأت بين جند خراسان حين قدموا إلى العراق واصطحبوا معهم الغلمان ، بخلاف ما كان عليه جند المسلمين فى الحرب إذ كانوا يصحبون نساءهم معهم ، ثم قال الجاحظ ولو كان هذا النوع من الغزل منتشرا بين العرب لوصلنا منهم الشعر الكثير كما وصلنا من شعرهم فى المرأة[٢] .

---

(١) Reseher arab. Lit, S. 16, Ahlwardt, Uber Poesie and Poetik, S 56.

(٢) Eugen Mittwoch' die literarische tatigkait Hamza al gsbahani:—
Mitt. sem. or. sprache XII (1909) westas. st. 137 ff.

وتفنن أبو نواس فى غزله ووصف غلمانه بأنواع الوصف الذى تساعد عليه اللغة العربية ، ومنحهم الأوصاف التى توصف بها الحسان فالجميل فى نظره ، أحور العينين ذوصدغ ، له حاجب كالنون وهو خوط بان منور ، وله لثغة وكشح مخصر ، أو هو البدر يمشى فى قراطقه ، أو دعص من رمل فى غصن البان ، ويعجبه من غلمانه الأمرد الطرير ذو الكفل الأهيف ، فإذا نبتت لحيته زوى أبو نواس وجهه عنه وولى ويسدر فى غلوائه حتى يعصى السماء بغلمانه[1] ولا يدع معنى من المعانى التى تثير هذه الغريزة إلا أتى به فى إسراف لا تقبله الطبيعة التى تريد التوازن بين جميع الغرائز فإن الطبيعة جهزت الكائن الإنسانى بقوى كامنة لبقائه واستمراره فى الحياة . فإذا أسرف فى قوة من قواه اختل هذا التوازن وناء هذا الكائن بعبء هذا الاختلال ، والغريزة الابتدائية إذا سيطرت وحدها لتشبع نهمها بشدة وعنف أثرت أثراً بالغا فى إخفاء المواهب وإضعاف الطموح ، وهو ما تريده المانوية .

أما الخمرة فقد كانت عنوان قصائده ، وغرر شعره ، فإذا كان العرب قبلا يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال والدمن والظعائن والأوطان ، فإن أبا نواس جعل الخمرة فاتحة القصيدة ووصفها بأنواع الأوصاف وشبهها بالتشبيهات الواضحة وحببها إلى الناس وأغراهم بها ، فهو يشبهها بالنور إذا حلت بالزجاجة ، ورغوتها أو زبدها بالنجوم تارة وأخرى بالمضة أو الدر ولمعانها بلمعان البرق ، وجعلها معبودة تسجد لها الملوك ، وإذا دارت كئوسها حسبتها النجوم فى السماء وإنها فى دن نسج العنكبوت عليه بيوته وقد عتقت فيه ورقت حتى أصبحت فى رقة دين أبى نواس كما يقول ذلك عن نفسه . كالدمع صفاء وحسنا . وكقطر الطل فى الرخام

---

(١) راجع ديوان أبى نواس ص ٢٠٣ وما بعدها .

الصافى ، ولا تنزل الأحزان ساحتها ، وإذا مسها حجر طرب وتهلل بالفرح والبشر وهكذا يغرى أبو نواس بمعاقرة بنت الدنان ويطلب منهم ألا يتأخروا عن ذلك ، إذا حل الربيع وربت الأرض وزهت وأنبتت من كل زوج بهيج[١] .

انحدر أبو نواس من أصل فارسى كما يقول الأصمعى وادعى اليمن وتولاهم[٢] واستقبل ضياء الشمس بالأهواز ونشأ بالبصرة . وهو يعتز بفارسيته فى شعره ويفخر بأجداده ويقول :

بلينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم
فلو ردفى كسرى بن ساسان روحه إذن لاصطفانى دون كل نديم[٣]

* * *

تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر[٤]

* * *

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس[٥]

* * *

فاسقنيها وغن صوتاً — لك الخير أعجما
ليس فى نعت دمنة لا ولا زجر أشأما[٦]

إنا نجد فى شعر أبى نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك فى العقيدة ومهاجمة الدين والإباحة المطلقة والغزل بالمذكر ونرى إلى جانب ذلك تعصبة لقومه والإشادة بهم والحط من شأن الدين والأدب العربى وأساليبه .

---

(١) اقرأ ديوان أبى نواس
(٢) أخبار أبى نواس ص ٩
(٣) أخبار ص ٧٥
(٤) ديوان ص ١٦٦
(٥) ديوان ١٨٢
(٦) ديوان ٢٠٢ .

وتحضرنى فى هذه الوجهة مقارنة موجزة بين أبى نواس شاعر العباسيين وبين هاينرش هاينه شاعر الراين فقد انحدر هاينرش هاينه من أصل يهودى إلى مجتمع جرمانى وتثقف ثقافة ألمانية واعتنق الدين المسيحى كما انحدر أبو نواس من أصل فارسى إلى مجتمع عربى وتثقف ثقافة عربية واعتنق الدين الإسلامى .

ولد شاعر الألمان فى دسلدورف عام ١٧٩٧ ودخل فى الدين المسيحى عام ١٨٢٥ وتوفى عام ١٨٥٦ فى باريس وعلا صيته فى الشعر حتى أصبح يلقب « شاعر الراين » والراين نهر يجرى فى مقاطعة شعرية جميلة من أجمل البقاع فى ألمانيا ، بها ترعرع هاينه وتثقف ونظم الشعر وكان جميل النظم عذب الأسلوب ، يتخير الألفاظ الغنائية والتشابيه الواضحة . وهو فى أسلوبه وسلوكه يشبه كثيراً أبا نواس ، فهو حاد النكتة كثير الهزل ، يتكلم ويصف فى غزله وهزله دون حياء أو خجل ، ليس للرذيلة عنده قيود أو حدود ، بل هى عنده جماع الفضيلة . وكان أثر شعره الغنائى شديداً على الفتيان والفتيات ، ويرى أن الحياة لا تعرف على حقيقتها إلا إذا نزل المرء إلى الحمأة — أى إن الإنسان لا يعرف أخاه الإنسان ، أو أن الفتى لا يعرف حقيقة فتاته إلا إذا هتكا كل ستر ومزقا كل حجاب وتكشفت الغرائز بعضها لبعض . هناك فى هذه الحمأة النتنة ، تتلاقى الغرائز وتتعارف فتتحاضن ، وبهذه الأفكار الحسية كان هاينه يكلم شعباً له تقاليده وعاداته ، له تكوين أسرته ، له دينه وعقائده . ولم يقف هاينه عند هذا الحد ، بل أخذ يهزأ بهذا الشعب ويهجوه ويصغره فى عين نفسه . واستمر شعر هاينه يقرأ القرون الطوال ، ولم ينج من تأثيره فتى ولا فتاة ، وقد سعى لإفساد كل عقيدة ، وهتك كل ستر ، والقضاء على كل تقليد . وقد أحرقت كتب هاينه فى ظرف من ظروف ألمانيا ، وبقى ديوان أبى نواس وأخبار أبى نواس فى مباذله ومفاسده وميوعته .

٣ — أبو العتاهية

نشأ بالكوفة وبها تثقف وتعلم نظم الشعر وبرع به ، حتى أنه كان يقول الشعر كما يقول النثر . وشعره من الطراز الأول ، سهل الألفاظ لطيف المعانى . بدأ بالغزل واستمر عليه حيناً من الدهر ، ثم تركه ومال إلى الزهد فاتهمه الناس بالزندقة[١] . وقد ترجع هذه التهمة إلى ما انتشر فى تضاعيف شعره من المعانى الدالة على الاثنينية وإلى هذا الزهد الذى هو مبدأ أصيل فى مبادئ المانوية وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البعث فى شعره ، وأن شأنه شأن الزنادقة من شعراء هذا العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس ، وأنه كان يقول : إذا كنت تشك فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه[٢] .

وقال بروكلمن إن ماقيل عن أبى العتاهية أنه لا يذكر البعث فى شعره ولا يتكلم إلا عن الموت قول لا يستند إلى أصل[٣] .

ودافع عنه صديقه أحمد بن حرب وقال ، كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان[٤] .

ودفاع ابن حرب هذا ليس فى صالح أبى العتاهية لأن أثر الأثنينية فى قول أبى العتاهية ظاهر .

ويلفت فايدا نظر الباحث إلى أرجوزة أبى العتاهية ويستدل بها على ما كان يجول فى ذهن هذا الشاعر من الرأى فى الكون والخليقة .

---

(١) بروكلمن ملحق جـ ١ ص ١١٩ أغانى جـ ٤ ص ٢ . (٢) فايدا ص ٢١٧
(٣) بروكلمن ١١٩ (٤) فايدا ٢١٩ . أغانى جـ ٤ ص ٥

وإننا نورد الأبيات التالية فى هذه الأرجوزة على سبيل الإيضاح :

لكل شىء معدن وجوهر ... وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل ممتزج ... وساوس فى الصدر منها تعتلج
وكل شىء لاحق بجوهره ... أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ... ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج ... لذا تتاح ولذا تتاح
من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض
لكل إنسان طبيعتان ... خير وشر وهما ضدان
والخير والشر إذا ما عدا ... بينهما بون بعيد جدا
كذا قضى الله فكيف أصنع ... الصمت إن ضاق الكلام أوسع

ويكتشف فايدا فى هذه الأبيات عن مبطون الأثنينية فى الخير والشر والصفو والكدر والمحض والممتزج وما يتولد من المعانى التى ترجع إلى النور والظلمة اللذين تدين بهما المانوية والمزدكية ، ثم يترك الفصل فى الحكم على أبى العتاهية ويقول إننا لا نعلم أكان أبو العتاهية موحدا فأخذ نظرية الأثنينة من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم فى وجهتى الخير والشر حيث تنوه أحياناً بالآلام وأخرى تسر بالمباهج ، أم أن توحيده هذا كان قناعا يتستر به لنشر مبادىء المانوية كما هى طبيعة أهل هذه النحلة[1]. إننى أميل إلى الرأى الثانى وإلى الفصل بالحكم بدلالة ما جاء فى هذه الأبيات وما انتشر من الآراء فى شعر أبى العتاهية . وقد اتهم أبو العتاهية فعلا بهذا التستر انظر (ماسنيون — استشهاد الحلاج ص ١٤٩ وما بعدها) وهذا التستر وسيلة تعرف بها المانوية فى محاربة الأديان[2]

بقى علينا أن نبحث فى زهد أبى العتاهية ، لنرى هل هو أصيل فى طبيعة شعره أم هو طارىء متعمد ؟ ؟ . .

---

(١) فايدا ٢١٧ .

(٢) ينبرع ص ٤٢٨ .

إننا نعرف أبا العتاهية شاعراً غزلاً متيما فى عشيقته فكيف نرك هذا الغزل وإنه يبخل على بطنه أن تشبع فكيف يجتمع الزهد والبخل والزهد والعشق ؟ ؟ . وقد سمعنا عنه يقول : إن الناس لا يحترمون الفقير بل يحترمون الغنى ويخشون بأس ذى القوة . فهو زاهد وهو بخيل . وهو يحب المال ويرى فيه القوة والاحترام ولقد خاب فى عشقه فترك الغزل ، وشهد مصرع أسياده البرامكة فذل بعد عز ونزل سجن الزنادقة بين المتهمين ، فماذا يصنع أبو العتاهية ، أيجاهر الحاكمين بالعداء أم يتستر وينشر من آرائه ما يشاء ويختار ؟ .. أيدعو للخير والشر أم للظلمة والنور وهو يعرف أن رأسه بين القطع والسيف إن نطق بذلك . لقد اعتصم أبو العتاهية بالصمت ولكنه وجد لنفسه مخرجا . حين طلب إليه الرشيد أن ينظم شعراً ولم يأمر بإخراجه من السجن . فلم يقل كما يريد الرشيد بل قال شعراً من نوع آخر تعمده واستمر عليه ، ونوى فيه الانتقام كما يقول . وقد حدثنا عن ذلك صاحب الأغانى ، قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملون لهؤلاء شعرا يغنون فيه فقيل له ليس أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس ، قال أبو العتاهية فوجه إلىّ الرشيد قل شعرا حتى أسمعه ، ولم يأمر بإطلاقى فغاظنى ذلك فقلت والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسر به فعملت شعرا ودفعته إلى من حفظه من الملاحين فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشر دنـــو ونـــزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منـــه نصـــوح
سيصير المرء يوما جســـــداً ما فيـــه روح
كل نطاح من الدهر له يوم نطـــوح

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
تموتن وإن عمّرت ما عمر نوح (١)

وقال الأصمعي : صنع الرشيد طعاما وزخرف مجلسه وأحضر أبا العتاهية ، وقال له صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال أبو العتاهية:

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور (٢)

قال فبكى الرشيد حتى بل كمه .

وأخبر المسعودي والماوردي والشريشي عن الأصمعي أنه قال : دخلت على الرشيد وهو ينظر في كتابه ودموعه تنحدر على خديه فظللت قائما حتى سكن وحانت منه التفاتة فقال لي اجلس يا أصمعي . فجلست فقال لي : أرأيت ما كان ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت دموعي . ثم رمى إلي بالقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخط جليل وهو :

يا من يريد الموت مهجته — لا شك — ما لك لا تبادره
هل أنت معتبر بمن خربت منه — غداة قضى — دساكره .

قال الرشيد كأني والله أخاطب بذلك دون الناس ولم يلبث بعد ذلك قليلا حتى مات (٣)

وسواء أتستر أبو العتاهية لنشر مبادىء المانوية بالانتقام من الرشيد أم أن حالته كانت تستدعي ذلك فقد وجد أسلم الطرق لبلوغ المانوية مرامها في صرف النفوس عن الطموح واستكانتها للخوف والذعر ،

---

(١) أغاني جـ ٤ ص ١٠٣
(٢) ديوان ص ١٣٢
(٣) ديوان ص ١٢٣

وكيف لا تستسلم النفوس إلى الخوف وهى تسمع منه أنها لم تولد إلا للموت ، ولا تبنى إلا للخراب ، وأن مصيرنا إلى تراب ، لأننا خلقنا من التراب ، وأن الموت لا مفر منه لا يحابى أحداً ولا يظلمه ، وأن القبور فى صمت عميق لا تسمع ولا تعى فنادها ما شئت فلن تجيبك واسألها عن الملوك وآبائهم وأبنائهم أين ذهبوا وإلى أى شىء استحالوا فلا تسمع شيئا ولا تعلم عنهم غير أنهم صاروا رفاتا فى التراب ، وينادى أبو العتاهية الموت ويعاتبه ويقول له أيها الموت كلفتنى أن أغمض عيون أصدقائى فما أقساك ؟ ، إنك لا تريد أن تبقى على أحد من الخلق ، ثم يلتفت إلى الإنسان ويهمس فى آذان الناس ينذرهم بقصر مدتهم فلا يغفلوا عن الموت قاطع المدد(١) .

وهذا الشعر يملأ ديوانه ولولا التطويل لذكرت الشىء الكثير ، فإذا كان أبو نواس فتح للناس بابا جديدا فى الغزل والإباحة والبراعة فى وصف الخمرة فإن أبا العتاهية فتح لهم بابا آخر فى الزهد والكف عن الحياة وأصبح أثر شعره واضحاً فى كثير من تعاليم النحل التى نبطت فى الحياة العربية . وليس الضرر الذى يصل من شعر أبى نواس إلى النفوس فيحللها بأكثر من هذا الضرر يقتل الطموح ويصرف الأنفس عن الحياة وينقل الأمة من أفقها الواسع الذى ينتظم الإنسانية إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية إليه .

أما عن بخله الذى لا يتفق مع طبيعة الزهد . فقد جاءتنا بطرائفه كتب الأدب ومن طريف ذلك ، ما حدثنا به صاحب الأغانى : أن سائلا وقف على أبى العتاهية وجماعة من جيرانه حوله فسأله ، فقال أبو العتاهية . صنع الله لك . فأعاد السؤال . فأعاده عليه ثانية فأعاد عليه

---

(١) راجع الديوان .

ثالثة فرد عليه مثل ذلك . فغضب فقال له السائل ألست القائل :

كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

ثم قال : فبالله عليك ، أتريد أن تعد مالك كله لثمن كفنك ، قال لا ، قال : فبالله كم قدرت لكفنك ؟ . قال خمسة دنانير . قال فهى إذن حظك من كله . قال : نعم قال فتصدق على من غير حظك بدرهم واحد ، قال لو تصدقت عليك لكان حظى . قال السائل : إن القبور تحفر بثلاثة دراهم ، فأعطنى درهما وأقيم لك كفيلا بأنى أحفر لك قبرك به متى مت وترجع درهمين لم يكونا بحسبانك فإن لم أحفر رددته على ورثتك أو رده كفيلى عليهم ، فخجل أبو العتاهية وقال أغرب لعنك الله ، وغضب عليه فضحك جميع من حضر ومر السائل يضحك ، فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة فقلنا له ومن حرمها ومتى حرمت[1] ؟

وذكر أيضاً أن أبا العتاهية بعث إلى خزيمة بقصيدة منها :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه وأنت على مالا تحب مقيم

فقال خزيمة والله إن المعروف فى هذا المعتوه الملحف ضائع فقيل له وكيف ذلك ؟ . . فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله[2] .

إن الشعر قوة خفية تقع على مواقع الحس من النفس فتملؤها انشراحا وتثيرها حماسة وتضمرها لينا ورحمة ، فالنفس طوع بنان الشعر تتأرجح بين يديه فى القسوة والشدة والخجل والتواضع ، والصلابة والإقدام والإحجام والطاعة والعصيان وما إلى غير ذلك من أنواع الوجدان . والشعر أقوى من صولجان الحاكم وأنفذ من قوانين الدولة لأن السلطة تعتمد فى تنفيذ قوانينها على الرهبة والهيبة وتجعل مظهر

(١) ديوان ص ١٢ (٢) أغانى ج ٤ ص ١٠٠

بعدين الوجدانين الجيش والشرطة ولكن الشعر قوة وحده وفيه الهيبة وفيه الرهبة وهكذا دب شعر هؤلاء الثلاثة : بشار وأبي نواس وأبي العتاهية فى حياة الأدب العربى ووجهه توجيها خاصا ، فاندفع الشعراء ينسجون على منوالهم ويتأثرون أساليبه ومعانيه ردحا من الزمن وطفق الفتيان والفتيات يتغنون بشعر أبي نواس وبشار وغزل أبي العتاهية وانحدر زهده إلى زوايا المساجد والمعابد ، فتخذته الملل والنحل وجماعات الزهاد سبيل سلوكها ، وهكذا لم يخل مجتمع ولم تنج زاوية من زواياه من شعر هؤلاء الثلاثة الذى أثقل كاهل هذه الأمة وتركها تنوء بأعباء التحلل أو الانطواء ، فتحلل مجتمعها وفتحت ثغرات عظيمة فى كيانها للطامعين والفاتحين ولم تقم لها قائمة مذ دب هذا الانحلال فى جسمها فى غمرة هذا الصراع . إن الشعراء الذين يوجدون الأمم هم الذين يقدمون لحياتها ما يبدعونه لها . أما هؤلاء الثلاثة وأضرابهم فقد كان همهم أن يأخذوا من الحياة وليس الذى يأخذ كالذى يعطى ، وهم فى انتهاب اللذات أو الانصراف عنها إلى غيرها يتجاهلون سر التكوين ، وكل أمة تنصرف عن معرفة سر تكوينها لا يختلف وجودها عن الزبد الذى يقذف به التيار إلى أثباج البحر فتبتلعه أمواجه .

فى غمرة هذا العامل وغيره من العوامل التى ذكرنا وما سنذكر لحب الطريق لانتصار الموالى فتدهورت الخلافة العباسية : وصارت ريشة فى مهب ريح نكباء .

كان أبو العتاهية مولى لبنى عنزة . انحدر من أصل فارسى ، وتطورت به الحياة ، حتى صار شاعر البلاط ، ثم توالت عليه التهم ، فأفلت من يد حمدويه صاحب الزنادقة بهروبه من الشعر واتخاذه الحجامة مهنة له كما أفلت أبو نواس بهزله ونكاته ومدحه واستعطافه وإظهار توبته .

مات أبو العتاهية فى اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى أو الثانية لسنة ٢١٠ أو ٢١١ هـ .